الفرد والجماعة

يولد اولادنا ويربون على ما نريد من الاخلاق وما يرونهُ فينا وفي معاشرينا من الطباع التي تبدو لهم بالكلام والمعاملات ثم نرسلهم الى المدارس فيقيمون فيها الزمن الذي تتكوَّن فيهِ الملكات وترسخ الطباع فيعودون الينا باخلاق جديدة قد تكون موافقة لما ربيناهم عليهِ واردناهُ لهم وقد تكون مخالفة لذلك او مناقضة لهُ

كم من رجل لا علم لهُ ولا رأي ولا خلاق ارسل ابنهُ الى المدرسة غرًّا جاهلاً فرجع منها اليهِ متعلمًا متهذبًا يعرف ما لهُ وما عليهِ ولا يسير الاَّ في طرق الكمال . وكم من رجل يُعدُّ آية في العلم والفضل والجد والاجتهاد والرزانة والمهابة ارسل ابنهُ الى المدرسة فاقام فيها بضع سنوات ثم عاد منها اليهِ مطبوعًا على الكسل واللعب او منغمسًا في الملاهي والمنكرات

ولا مشاحة في ان الاخلاق موروثة واولادنا يرثون اخلاقهم منا ومن اسلافنا وقد لا يرث الولد من ابيهِ او امهِ بل من جدهِ او جدتهِ لابيهِ او امهِ او من احد اسلافهما وقد تمتزج فيهِ اخلاق والديهِ او تتضارب فيكون منها اخلاق جديدة ليست فيهما ولكن ذلك كلهُ لا ينفي تأثير العشراء ولا سيما الذين يعاشرهم في المدرسة مدة تكوُّن الاخلاق في النفس . وقد رأينا كلامًا في هذا المعنى للسر مارتن كنواي في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فاقتطفنا منهُ ما يأتي

ارتأى الاقدمون في الجماعة انها مؤلفة من افراد مستقلين الواحد عن الآخر ولكلٍّ منها آراء خاصة تختلف عن آراء غيرهِ من اوجه كثيرة . وكانوا يزعمون ايضًا ان رأي الجماعة نتيجة آراء الافراد الذين تتألف الجماعة منهم او انهُ الرأي المشترك بينهم . فاذا كانت آراء البعض مخالفة لآراء البعض الآخر افنى بعضها بعضًا واذا كانت آراء بعضها موافقًا لآراء البعض الآخر حصل من مجموعها رأي عام هو رأي الجماعة او الرأي العمومي

اما نحن المحدثين فنعلم انهُ لا الجماعة ولا رأي الجماعة على ما زعم الاقدمون . وانهُ وان كانت الجماعة مؤلفة من افراد مختلفة فلا يمكن تعيين رأيها من تطابق آراء بعض افرادها ورأي الفرد الذي تتألف الجماعة منهُ انما هو نتيجة حالة اوجدتهُ عليها ممازجتهُ للجماعة وذلك الرأي يدوم ما دامت تلك الحالة . فقد يتفق ان تلك الحالة لا تفارقهُ لشدتها فتصبح خلقًا او بعض خلق لهُ مدى العمر . على ان الغالب انها تزول باسرع مما طرأت وان ذلك الرأي يحلُّ باضمحلال الجماعة التي احدثتهُ

فالانسان من حيث هو فرد غير الانسان من حيث هو عضو في الجماعة ولكلٍّ منهما فعل في الآخر على الدوام . يولد طفل الانسان ويظل حتى اذا جعل يسرح ويمرح من البيت الى الشارع ويمتزج بجماعات الاولاد يمسي عرضة لتأثير تلك الجماعات فيه اما للخير واما للشر . فكلما كانت شخصيتهُ قوية كان اقوى على مقاومة المؤثرات والقوابل الخارجية ولكن اقوى الناس شخصية لا يزال عرضة للمؤثرات

والهيئة الاجتماعية وبعبارة اخرى الجماعة المتمدنة تجعل شغلها الشاغل تقييد كل فرد من افرادها بقيودها وضوابطها . فالتهيئة تعليمٌ او تهذيبٌ انما هو في الحقيقة تمرين الولد على نظام الجماعة لا تجهيزهُ بما يمكّنهُ من اتباع خطة ذاتية مستقلة

حالما يترك الولد حجر والديهِ ويرفع نير التربية البيتية عن عنقهِ ولو مدة وجيزة وينتظم في عقد اقرانهِ عاملاً حرًّا يرى نفسهُ عاجزًا عن العمل الى حدٍ لا يصدَّق . فاذا رام مشاركتهم في لعبهم شعر من نفسهِ بالعجز عن الخضوع لقوانينهم فينضم اليهم ثم ينفكُّ عنهم بغتةً ويخرق نظامهم فيعامل بالقسر والاكراه نتيجة ذلك . وليس في العالم اعسر قيادًا من الولد لاول عهدهِ بالمدرسة وذلك لضعف قوة الاجتماع في ذهنهِ . وعليهِ فلا بد من معاملة الصغار في المدرسة معاملة افراد مستقلين في بادىء الامر وبعد الجهد يتعلمون العمل معًا والخضوع المشترك . وهذا الخضوع المشترك هو الغاية من التمرينات البسيطة التي يدربون عليها معًا مثل الترنيم والانشاد والتصفيق بالايدي وما شاكل . وبمرور الايام يشعرون تدريجًا بانهم جماعة مرتبطة برباط واحد ويأخذون يتكلمون عن انفسهم مثل ذلك في جدّهم ولعبهم حتى اذا جازوا سن الطفولة صار فكر مشاركة الجماعة متأصلاً فيهم

ثم يأخذ هذا الفكر في الارتقاء والاتساع بشدة حتى انك لا ترى في الجماعات جماعة اقوى سطوة على افرادها من جماعة الاولاد على افرادها . ومن الخطاء الفاضح ان يظنَّ ان التهذيب في المدارس العمومية يتوقف في الاكثر على المعلمين . فانهُ يتوقف في الاكثر على صفة المجتمع الذي يتألف الاولاد منهُ . ففي وقت الدرس والتعليم يعلّم افراد كلّ فرقة بعض العلوم والفنون ويعدّون للجهاد في مضمار هذه الحياة . ولكن التهذيب الرئيسي يجري خارج غرف الدرس والولد يتعلّم ما يمكنهُ عملهُ وما لا يمكنهُ من رفاقهِ في وقت اللعب . والمجتمع الصبياني يحكم على افرادهِ حكمًا مطلقًا لا مردَّ لهُ فما يحللهُ يحلَّل وما يحرّمهُ يحرَّم . والرأي العمومي في المدرسة يقضي قضاء مبرمًا على الاولاد بلا رحمة ولا حنان . وهذا الرأي العمومي هو الذي يكيّف طبع الولد ويسمهِ بسمتهِ مدى العمر

وما يصعب ادراكهُ جدًّا كيفية نشوء ذلك الرأي وارتقائهِ . فهو ليس ثمرة فرد واحد ولا امرًا من معلّم ولا ينشأ اعتباطًا في معهد علمي جديد . وكلما كان نتيجة تربية كان نموهُ بطيئًا . وهو يرسخ في نفوس التلامذة المنتهين دروس المدارس العمومية و يعدي التلامذة الجدد باسرع من عدوى الامراض او بنسبة قابلية كلٍّ منهم للاختلاط بالجماعة . وتتداولهُ الاجيال من غير ان تغير فيهِ تغييرًا يذكر

ثم ان الرأي العام ليس واحدًا في المدارس المتعددة التي من طراز واحد بل يختلف في الواحدة عنهُ في غيرها فلكل مدرسة ذاتية مستقلة وكلٌّ منها تسم تلامذتها بسمة خاصة بها . وزد على ما تقدَّم ان معتقد التلامذة الديني ليس ما يحاول معلموهم اقناعهم بهِ بل ما يسلم بهِ جماعة رفاقهم معًا . ومن طبع الولد مماندة ما يحاول الكبار اكراههُ عليهِ فلا يقبل عن طيب نفس من الآراء الا ما صدر عن الجماعة التي هو جزء منها

هذا ما قالهُ السر مارتن كنواي وهو من الاهمية بمكان عظيم . فيجب على الوالدين والحالة هذه ان يسألوا عن اخلاق التلامذة الذين تضمهم المدرسة كما يسألون عن اخلاق اساتذتها ودرجتهم من العلم بل ان اخلاق التلامذة اولى بالسؤال عنها من كل وجه . واقلُّ خطاء في هذا الامر يفضي الى ضرر دائم

ثم استطرد السر مارتن الى امر آخر لا نقل اهميتهُ عن هذا الامر وهو ان التعليم الديني الذي يجبر التلامذة عليهِ اجبارًا ينتج ضد الغاية المطلوبة لان التلامذة يصيرون يكرهون الرسوم الدينية التي أُجبروا على فعلها والعمل بها . فتلامذة المدارس الدينية اقلُّ تدينًا من تلامذة المدارس غير الدينية لان الاولين يصيرون يكرهون رسوم الديانة لكثرة ما يجبرون على القيام بها وامثلة ذلك كثيرة جدًّا نراها كيفما وجهنا نظرنا . ولا يميل التلامذة الى الامور الدينية الا اذا اتجهوا اليها هم بنبه داخلي او خارجي كما يميلون الى غيرها من المسائل العمومية سواء كانت نافعة او ضارَّة

والتأثير الاكبر في نفس الشاب للشراء الذين يعاشرهم في المدرسة وخارجًا عنها والجهة التي يتجه اليها جمهور كبير من الناس ولا سيما اذا كان من حزبهم او مذهبهم فانهُ ينقاد اليهم طوعًا كما بجاذب كهربائي وقلَّ من يقف ويتفكر حينئذٍ هل جماعتي على هدًى او على ضلال وشأنهُ شأن من يسير مع التيار مضطرًّا غير مختار . فللعشراء والقرناء التأثير الاكبر في الاميال والآراء